شيخ الزمان

قال أبو العلاء المعري يرحمه الله ويغفر له مبيناً إيمانه بالرسل وخاتمهم عليهم السلام:

دعـاكم إلـى خـير الأمـور محمـدٌ ... وليس القنا في الطعن مثلَ السوافلِ

وقال أيضاً ما نتبين فيه حقيقة النفس المؤمنة المطمئنة:

ولـو أنـي حُبيـتُ الخلـدَ فـرداً ... لمـا أحببـتُ في الخلـدِ انفـرادا

فـلا هطلـتْ عليّ ولا بـأرضي ... سـحائبُ ليـس تنتظـمُ البـلادا

وقد عبَّر عن التزامه بالشرع بما وصّى به من طهارة وعبادة مدحضاً فكرة الوجودية:

قـال المنجّـمُ والطبيـبُ كلاهمـا ... لا تحشـرُ الأجسـاد، قلـتُ.. إليكمـا

إن صـحّ قولكمـا فلسـتُ بخاسـرٍ ... أو صـحَّ قولـي فالخسـارُ عليكمـا

طهّـرت ثوبـي للصـلاةِ، وقبلـه ... طهرٌ.. فأين الطهرُ مـن جسديكما

وأرى في هذا وفيما يماثله من شعره حقيقة إيمانه بالله الذي جعله يطهّر ثوبه وبدنه.

فقلت في مهرجانه السابع في المركز الثقافي بمعرة النعمان في ٢٠٠٣/١٠/١٨

مـالي بيومـك لا أجيـدُ كلامـا ... يـا مـن جعلـتَ رموشَـنا أقلامـا!

وتركـتَ فينـا مـن بيـانك منهـلاً ... وشـغلتَ فيمـا قلتـه الأيامـا

ومضيـتَ تَنشـدُ بالمحبـة عالمـاً ... فيـه يعيـش المجهـدون كرامـا

كنتَ الشفوق تـذوب روحُـك رحمـةً ... كـادت تضـم الإنـس والأنعامـا

لـم تجـن في يـومٍ علـى أحـدٍ، ولا ... هـادنت ضلّيـلاً، ولا ظَلاّمـا

وأبيْـتَ غيثـاً أن يصيبـك خـيرُهُ ... إن لـم تكـن منـه البـلاد تنـامى

خفّفـتَ وطـأك في الـثرى ورأيتـهُ ... مـن والِدينـا أعينـاً وعظامـا

حتى كتبنا عنك ألفَ حكاية ... لم تدنُ مما كنتَه استعظاما

فعلامَ ترضى أن تراني مطرقاً ... خجِلاً بيومك لا أجيد كلاما!

وعلام تحبس قولةً قد رُمتُها ... في بعضِ حقكَ منذ كنتُ غلاما

وأنا ولولا رهبةٌ لك تُتّقى ... لرأيتني في القوم أطولَ هاما

هذا حنيني صغتُه لك مخلصاً ... علّي به أقضي لديك ذماما

ولعلّني وأنا بسفرك أسطرٌ ... أحظَى بأدنى ما حَلُمتُ مُقاما

❖❖❖

يا من رهينَ المحبسين تواضعاً ... يُدعى.. وفي فهم الكواكب هاما

لا لم تكنْ يوماً رهيناً، إنما ... نحن الرهائنُ حينَ كنتَ غماما

تهمي علينا بالذي نعْنو له ... ويثير فينا الفكرَ والإلهاما

والفلسفاتُ بها تُرَجُّ عقولُنا ... لنرى بعين عقولنا الأحكاما

آياتُ ربّك لو أطقنا فهمَها ... لغدا شقاءُ حياتنا إنعاما

ورأيت أنّا الهائنون بظلّها ... والكون بالخيرات منها عاما

شقي الأنام بجهل فطرة ربنا ... وازددت في إدراكها إلزاما

حمّلتَ نفسَك فوق طاقتها، ومن ... يفعلْ كفعلك يُكثِرِ اللُوّاما

أدركتَ شيئاً من دقائق سرّها ... وكبيرُها عنه البصيرُ تعامى

فاهنـأ طليـقَ الـروح في حرّيـةٍ يقـف الزمـان أمامهـا إعظامـا

❖❖❖

يـا فـاقد البصـر الكليـل ومالكـاً نعمى البصيرة كم هزمتَ ظَلاما؟

ولكـم سـتبقى هازمـاً لَيْـلَ الأسـى والمبصـرون يُقلّبـون نيامـا!

كم مبصرٍ أعمى، وكم أعمى يـرى حتـى لتحسـبَ خلفَـه قُدّامـا!

وابـنُ المعـرة مـن عطيـةِ ربّـهِ مـا خلفـه أمسـى يـراهُ أمامـا

طـوي الزمـان لـه، فجـال بذهنـه وجـلا لنـا بعـض الـذي قـد غامـا

فـاركنْ لمـا قـد قـال عنـه موحـداً فـالله زاد فـؤادهُ إلهامـا

❖❖❖

يـا مـن بأحضـان المعـرّة قـد ثـوى وبهـا أقـام بمحبسـيه دوامـا

مـا ضـرَّ جسمَك نـاحلاً في سـجنِهِ والفكـر منـك يحـرّر الأقوامـا!

وإذا ذُكـرتَ فكـل نـادٍ يزدهـي وتـراه إجـلالاً لذكـرك قامـا

أعمـى نحيـلٌ في زوايـا بيتـه وسـع الحيـاة مـودة وسـلاما

ومضى برغم الضعفِ يقتحم المدى ويزيـد في إدراكـه إقدامـا

ولنحـن مـن لا ليـس يحصـى عدُّنـا لـم نـدرِ كيـف نبـدّد الأيامـا

عـبرت بنـا حقـبٌ ولـم نكسـب بهـا علمـاً، ولا هـي حرّكـت أفهامـا

وإذا تعلّمنا نسخّرُ علمنا ... لنزيدَ أهلينا أسىً وصداما

نحيا الهوان، وكم نخبّط في الدجى ... هيهات نملك أن نرى أحلاما!

ارواحُنا ما غادرت ظلماتها ... وهوى اللذائذ أنهك الأجساما

الناس قد غزت النجوم بعلمها ... وعن العلومِ وسرّها نتعامى

والبأس فيما بيننا متزايدٌ ... فإذا وهَى فلكي نزيدَ خصاما

أنسام أهلينا نحس بها اللظى ... ولظى العدوّ نحسّها أنساما

نستورد الخبزَ المذلّ وأرضنا ... للغاصبين تزيدهم إتخاما

وكنوزنا تُغني الأنام، وحظّنا ... منها فتاتٌ ليس يملأ جاما

ومياهُنا دفّاقةٌ لعدوّنا ... هيهات منها أن نبلّ أواما!

❖❖❖

ماذا أحدث سيدي عن أمتي ... وبحبها قلبي يزيد هياما؟

أوَليس حسبي أن منها المصطفى ... من كان للرسل الكرام ختاما!

في قولةٍ منه صلاح أمورنا ... وبها نعود على الزمان كراما

لكنّ من حملوا الأمانة ضيّعوا ... أوّاه كم جعلوا الحلال حراما!

ولكم أباحوا ما يحرّمُ ربُّنا ... ونسوا الجهاد، وعطّلوا الأحكاما

فإذا بمليار امرىءٍ من أمتي ... لم تلق فيهم من يسلُّ حساما

قد أسلموا للكافرين قيادهم ... واستُخْدِموا كي يوئدوا الإسلاما

يرضون ما قسم اللئيمُ لعبده ... والفخر إن زادوا له استزلاما

ويزيد طاغوت الزمان تجبّراً ... ونجلّه رباً لنا، وإماما

ماذا أقول أبا العلاء بأمة ... خفرت لرب العالمين ذماما!

ما قلتُ قولاً فيه تدرك عزّها ... إلا رأيت طوالهَا أقزاما

يتهافتون على الفُتات ولا ترى ... إلا الذي في غيّهِ قد هاما

قل لي أمُجْدٍ أن أسوق نصيحةً ... أم غيرُ مُجْدٍ أن أسوق ملاما!

حتام يبقى غائباً تفكيرُنا ... حتام نبقى نعبد الأصناما!

وإلام يبقى للعدوّ ولاؤنا ... ونرى بني أرحامنا أخصاما!

وعلام يمضي سيفُنا برقابنا ... وبخصمنا من أهلنا نتحامى!

وعلام ألفُ علام تفري مهجتي ... أوما ترانا نخجل الأغناما!

❖❖❖

يا من وهبتَ الناسَ حكمتَك التي ... تزداد في فهم الورى إحكاما

قل لي وأنت على الزمان حكيمُنا ... حتّام يبقى من بَغوْا حكّاما؟!

الكون كل الكون يرجُفُ رهبةً ... منهم فقد زادوا به الأسقاما

وتألّهوا، وعلى الضعيف تألّبوا ... ويرونْ إفناءَ الضعيف لزاما

قد أرهبوا الدنيا وأجرمُ مجرمٍ ... من شكّ فيما يفترون، ولاما

إلغـــاءُ تـــاريخٍ وقتـــلُ حضـــارةٍ ... هـــو مـــا يُعَـــدُّ لـــدى الطغـــاة سـلامـا

وفنـــــاء آلافٍ مؤلفـــــةٍ بـــــلا ... ســـببٍ يُعَـــدُّ حضـــارةً ونظامـــا

وإذا الســـليبُ أراد بعـــضَ حقوقـــهِ ... أدنـــى الـــذي ســـيناله الإعدامـــا

وإذا تـــأوّه مـــن مجاعتـــه فتـــى ... قـــالوا خطـــيرٌ أدمـــن الإجرامـــا

فـاعذر فديـت أبـا البصـيرة إن أكـن ... عـــن ذلنـــا لا أستســـيغ كلامـــا

لكننـــي بقـــدوم فجـــري موقـــنٌ ... إمـــا زرعنـــا في الوغـــى الأقدامـــا

أومـا تـرى طفـل العقيدة بـالحصى ... أمســـى لأعتـــى آلـــةٍ هزّامـــا!

والغـــاصبون برغـــم كـــل عتوّهـــم ... كـم يُحْجِمـونَ عـن الوغـى إحجامـا

الخـوفُ طـار بهـم فتحسـبُ أنهـم ... لقتالنـــا قـــد أرغمـــوا إرغامـــا

كـــم مـــن رضيـــعٍ مزّقـــوه، وكســـروا ... عظمـاً لمـن لـم يـدرِ بعـدُ فطامـا!

كـــم مـــن جنـــانٍ صيّروهـــا بلقعـــاً ... ولكـــم أحـــالوا الشـــاهقاتِ ركامـــا!

مـــا كـــان هـــذا الطيـــش إلا رهبـــةً ... يامـــا ســـتزداد الغـــداةَ، ويامـــا!

إنـــي لألمـــح ألـــفَ فجـــرٍ قـــادمٍ ... مـــا دام طفـــلٌ يعشـــقُ الإقدامـــا

وأرى الصبيـــةَ بـــالجحيمِ تزنّـــرت ... لتذيـــق موتـــاً للطغـــاة زؤامـــا

قـل للطغـاةِ لسـوف تنجـب أمتـي ... ألفـــاً إذا أخـــذ الجهـــادُ غلامـــا

ولســـوف يرتعـــد الســـلاح إذا علـــت ... الله أكـــبر والجهـــاد تســـامى

مـــا صبرُنـــا إلا تململـــ ثـــورةٍ ... ســـتزيد قلـــب الظـــالمين ضرامـــا

وترى بها التوحيدَ وحّد أمتي ... لتعود في صدر الزمان وساما

لا لن يطول ظلام ليل أرعنٍ ... فالفجر لا يُبقي ضحاه ظلاما

ما أفلتت كفُّ المهيمن ظالماً ... والله لن يبقي الأباةَ نياما

❖❖❖

يا من يظن بقبضتيه مجدَنا ... مجدُ الحقيقة لن تراه يُضاما

كم هزَّ ضعفُ الحقِّ قوةَ ظالمٍ ... وأحال ما شاد الطغاةُ حطاما!

لن تكتب التاريخَ طلقةُ مدفعٍ ... كلا، ولن تلد الحروب سلاما

المجد ما أرضى الإلهَ بناؤه ... وعلى العدالةِ في البريّة قاما

❖❖❖

عفواً أبا الإبصار قولكَ بيّنٌ ... وبه أرى القول المبينَ لزاما

قالوا تزندق قلتُ تلك مزيّةٌ ... ما دام أدرك بعدها الإسلاما

أوَما المنجّمُ والطبيبُ كلاهما ... قد أُفحما بيقينه إفحاما

حسنُ الختام هو الأهم وقبلَه ... ما كان كان جميعُه أوهاما

❖❖❖

الشام يا شيخَ الزمان كعهدها ... تُرضي الصديقَ، وترهب الأخصاما

ستظلُّ فيها للجهادِ كتائبٌ ... وتظل رافعةً له الأعلاما

منها سينطلق الجهاد، وعندها ... سترى بأني من يجيد كلاما